



الرقص الفرنجي

﴿ في شعر ابن حمديس ﴾

قال ابن حمديس وقد سأله رجلٌ أديبٌ من الاندلس أن يصف له راقصةً على مذهبهم في رقص قيناتهم، وذلك أن الراقصة منهم تشير بأنمائها وهي تغني إلى كل عضوٍ وما يحلُّ به من تعذيب الهوى : فان ذكرت دمعاً أشارت الى الغيرة ، وإن وصفت وجداً أشارت الى القلب ، وهي مع ذلك تمبّر عن تدلُّل المحبوب وتدلُّل الحب بما يليق بهما من الاشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت :

وراقصةٌ بالسحر في حرّ كاتنها	تقيم به وزن الفناء على حدّ
ممنخمة الفاظها برثم	كسا (معبدًا) من عزه ذلة العبد
تدوس قلوب السامعين برخمة	بها لقطت ما للحنون من العدّ
يقدّ يموت الغصن من حرّكاته	سكونًا ، وأين الغصن من نزهة القدّ
وتحسبها عمّا تشير بأنمّل	إلى ما يبلا في كلّ عضو من الوجد
بنا لابها ما تشكي من جوى الهوى	وأدمع أشواقٍ مُحدّدة الحدّ

في هذه المقطوعة تتجلى مميزات الشعر الكلاسيكي : فان حمديس يدع التوشيح جانباً وينجأ الى بحر الطويل ، فيصف لنا متأنباً مشهد الرقص بأسلوب جزل وألفاظٍ عربية أصيلة ، وينظر النظرة التقليدية المحترمة الى التشبيهات العربية الماثورة دون أن يكون المقلد الأعمى . ومن كلّ هذا يكتب الشعر الكلاسيكي (أي المدرسى الماثور) حرمة ، لأنه يحرص على أدوع التقاليد الشكلية ولكنه يقرنها الى قوة المعاني الشعرية بحيث أن المجدد (الرومانطيق)

الذي يهيم بصنوفٍ حديثةٍ من الأوزان والأخيلة والمعاني والموضوعات لا يتردد مع ذلك في تقدير ذلك الشعر الكلاسيكي ، لأنه وإن يكن تقليدياً الديباجة والصياغة إلا أنه يجمع إليها قوة شعرية ممتازة . وإنك لو اجدت كل بيت من هذه الأبيات المتقدمة زاخراً بالمعاني الشعرية . ولهذا المناسبة تقول إنك قد تجد شاعراً كلاسيكياً الزعقة في مناسبات (كما هو حال شوقي بك في معظم شعره) ورومانطيقياً في مناسبات أخرى (كشأنه في دراماته الشعرية) ، وإذا كان القديم من الشعر الحى الممتاز معدوداً كلاسيكياً فبيننا غير واحد من الشعراء ينحو هذا النحو بسليقته وثقافته حيناً ينحو سواهم عكس ذلك ؛ فشوقي بك مثلاً في جلته شاعر كلاسيكي بينما الدكتور ابراهيم ناجي شاعر رومانطيقى . ومع هذا فكلاهما بفطرته الشعرية السليمة يقدر شعر ابن حمديس المتقدم خير تقدير نظراً لروحه الشعرية التي تتلاقى عند قوتها مذاهب الشعراء المختلفة وتشارك في احترامها .

ومما تقدم يتضح أن الشعر القديم لا يعنى حتماً الشعر الكلاسيكي والعكس بالعكس ، كما أن شعراً بعينه قد يجمع في القصيدة بين الاسلوب الكلاسيكي والمعاني المثالية والشذوذ أحياناً عن ذلك كما رأيت في قصيدة ابن زيدون المنشورة في العدد الماضي ، وقد يجمع بين الاسلوب الكلاسيكي والمعاني المستحدثة الطريفة كما يلاحظ لبعض فحول شعرائنا من المعاصرين والسابقين (قد نشرنا أكثر من نموذج لذلك في هذه المجلة) ، والتقدير لهذا الشعر أمرٌ نسبيٌ ولذلك تختلف الاحكام بين النقاد . وقد قيل لنا في معرض النقد إن الشعر العربي بعيد عن الروح الكلاسيكية بالمعنى المتواضع على هذه الكلمة ، وإن الشعر الكلاسيكي قوامه البعد عن الغناء في الشعر، وتجمافي الذاتية ، وطلب الكمال في الشكل ، الخ . وفي الواقع أننا حاولنا الاعتدال في التعريف وفي التطبيق بما كتبناه في هذا الباب ملائماً للشعر العربي ولنا سند أدبي في ذلك من نظرات لافرين في كتابه دراسات في الادب الأوروبي (Lavrín's Studies in European Literature). مثال ذلك أن الاغراق والتسلسل في الوصف تقليدياً وتحليلياً (مما كان يلجأ اليه شعراء الاغريق واللاتين وكما نراه في شعر ابن الرومي) كثيراً ما يُسمّى كلاسيكياً (راجع « دراسة الشعر » The Study of Poetry of تأليف بلاكوود وأزبورن ص ٨٥) ولكننا أحرص من الاقتصار على هذا النهج من البيان عند تعريف النسق الكلاسيكي لشعرنا العربي ، وليس هذا بدعة منا حيناً التواضع العام يميزه (راجع Webster). ونحن لا نجد التصور الدرامي

الصِّرفَ المشهودَ في نظم هوميرو وشكسبير وسوفكليس وأمثالهم من الإعلام السابقين ظاهراً في الشعر الشرق مجلّة بل نجد يديه التصور النسبي والميل الى القدرية او المصادفة والعناية بالحوادث بدل العناية بدراسة الشخصيات المرتبطة بهذه الحوادث ، وكل هذا من تأثير البيئة والظروف واختلافها بين الشرق والغرب . بيد ان هذا لا يدعوننا الى تجريد الشعر الشرق عامة والشعر العربي خاصة من الاهلية لوصف القسم التقليدي الممتاز والمأثور الرائع منه بالشعر الكلاسيكي وإنّ تباين في بعض صورته وحرّاميه وفي نسبته الاثرية بين عصر وعصر وبين تلك العصور وعصرنا هذا ، ولكننا نستثنى على كل حال الشعر الغنائي المحض فهو قسم بذاته وله أصوله ومميزاته وله خروج ظاهر على رزانه وهيبته الشعر الكلاسيكي الاصيل ، ومع هذا فلو جاء ناقد معارض واعتبر الشعر الغنائي القديم المتسامي الرصين الديباجة ولا سيما الحماسي منه مثالا من أمثلة الشعر الكلاسيكي على اعتباره نموذجاً طلياً مأثوراً في البيان والصياغة والمناسبات التاريخية لما استطعنا أن ننكر عليه هذا الحق في التقسيم كل الانكار .



العمر والاماني

مُنَى تناثرن حول النفس ذابلة
تأني التجاريبُ الا ان تودّعها
والعمر يجرى كما يجرى السحاب فإ
وإن أعيدَ فلا حـدمـm

كما تناثر حول الدوحة الورقُ
بين الطموح وبين اليأس تصطفق
يعود ما جدّ منه وهو يستبق
هي الليالي غضابٌ او بها خرق